

شرعية الاختلاف الإنساني: الأصول التكوينية والمقاصد التشريعية

محمد الصادق العماري

تخصص العقيدة والفكر الإسلامي، مدير مركز تدبير الاختلاف للدراسات والأبحاث، فاس-المغرب
sadikiamarimohamed@gmail.com

الملخص:

إن الاختلاف من القضايا التي يساء فهمها واستيعابها، لكن إذا تتلمذنا لخطاب الشرع، وبذلنا الجهد، بل ستفرغنا الوسع، في تتبع موارد هذه القضية في نصوص الوحي، واجتهادات علماء الصناعة الأصولية، على مستوى التنظير والتفصيل، وعلى مستوى التفعيل والممارسة، يتضح لنا النظر الشرعي للحق في الاختلاف وشرعيته، وشرعية الاختلاف -وفق النظر الشرعي- تتأسس على أصول تكوينية، ومقاصد تشريعية.

اقتضت إرادة الله التكوينية، أن يكون الناس مختلفين في عقولهم، ومداركهم، وميولاتهم النفسية، واستعداداتهم الفطرية، وقدراتهم الجسمية.. يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾ (هود: ١١٨)، وهذا الاختلاف لا دخل لهم فيه، بل هو طبيعي فيهم، مخلوق فيهم ابتداء، مركوزا في فطرتهم، يقول ابن عاشور: "الاختلاف دائم بينهم لأنه من مقتضى ما جبلت عليه العقول"^١، وحكم الله به عليهم في الأزل، وبناء على ما سبق، فإن للاختلاف الإنساني أصول تكوينية، ومقاصد تشريعية، عليها تتأسس شرعية الاختلاف، والحق فيه، فالله عز وجل أراد الاختلاف كونا، وحكم به بين الناس، سواء كان اختلافا في الأديان، والشرائع، والأفكار... أو في الألوان، والألسن، والقبائل... فكل ذلك مشيئة إلهية قدرية كونية، لكن وجه الإنسان إلى تلمس مقاصد هذا الاختلاف التشريعية ومنها: التعارف والتعاون... وقد جاء في الشرع ما يدل على هذه المقاصد والتنبيه عليها، في سياقات مختلفة. وأهم هذه السياقات: سياق تنبيه الخلق إلى أن اختلاف الشعوب والقبائل مقصده التعارف، وسياق اختلاف الظواهر الكونية مقصده التكامل، والجمال، واهتداء الإنسان إلى الإيمان بوحداية الله وبوجوده..

الكلمات المفتاحية: الاختلاف الإنساني، الأصول التكوينية، المقصد الشرعي.



المقدمة:

إن الاختلاف من القضايا التي يساء فهمها واستيعابها، لكن إذا تتلمذنا لخطاب الشرع، وبذلنا الجهد، بل ستفرغنا الوسع، في تتبع موارد هذه القضية في نصوص الوحي، واجتهادات علماء الصناعة الأصولية، على مستوى التنظير والتفصيل، وعلى مستوى التفعيل والممارسة، يتضح لنا النظر الشرعي للحق في الاختلاف وشرعيته، وشرعية الاختلاف -وفق النظر الشرعي- تتأسس على أصول تكوينية، ومقاصد تشريعية.

اقتضت إرادة الله التكوينية، أن يكون الناس مختلفين في عقولهم، ومداركهم، وميولاتهم النفسية، واستعداداتهم الفطرية، وقدراتهم الجسمية.. يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾ (هود: ١١٨)، وهذا الاختلاف لا دخل لهم فيه، بل هو طبيعي فيهم، مخلوق فيهم ابتداء، مركوزا في فطرتهم، يقول ابن عاشور: "الاختلاف دائم بينهم لأنه من مقتضى ما جبلت عليه العقول"^٢، وحكم الله به عليهم في الأزل، يقول الإمام الشاطبي في شأن الاختلاف الواقع بين الخلق أنه: "سبق به القدر حتم عليهم ما هم عليه من الاختلاف"^٣.

^١ - التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية، بدون طبعة، (١٩٨٤م)، ١٢/١٨٩.

^٢ - التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية، بدون طبعة، (١٩٨٤م)، ١٢/١٨٩.

^٣ - الاعتصام، الشاطبي، ضبطه وصححه: أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م)، ١٦-١٧. (بتصرف).

لكن هذه الإرادة التكوينية في اختلاف الناس، وتباينهم في الأفكار والمعتقدات ... لها مقاصد تشريعية، ومصالح إنسانية يجب أن تعرف، لأن معرفتها تساعد على فهم الاختلاف، وتدبيره، والاستفادة منه، يقول السعدي: "ومن عنايته بعباده ورحمته بهم أن قدر ذلك الاختلاف لئلا يقع التشابه فيحصل الاضطراب ويفوت كثير من المقاصد والمطالب".^١

وبناء على ما سبق، فإن للاختلاف الإنساني أصولاً تكوينية، ومقاصد تشريعية، عليها تتأسس شرعية الاختلاف، والحق فيه، فالله عز وجل أراد الاختلاف كونا، وحكم به بين الناس، سواء كان اختلافاً في الأديان، والشرائع، والأفكار...، أو في الألوان، والألسن، والقبائل...، فكل ذلك مشيئة إلهية قدرية كونية، لكن وجه الإنسان إلى تلمس مقاصد هذا الاختلاف التشريعية ومنها: التعارف والتعاون ...، وقد جاء في الشرع ما يدل على هذه المقاصد والتنبيه عليها، في سياقات مختلفة، وأهم هذه السياقات: سياق تنبيه الخلق إلى أن اختلاف الشعوب والقبائل مقصده التعارف، وسياق اختلاف الظواهر الكونية مقصده التكامل، والجمال، واهتداء الإنسان إلى الإيمان بوحداية الله وبوجوده ..

وبالوقوف على الأصول التكوينية للاختلاف، ومقاصده التشريعية، وفق النظر الشرعي، يتم الاهتداء لحقيقة الاختلاف، وشرعيته، وبذلك نؤسس لفهم جديد للاختلاف الإنساني، متجاوزين بذلك كل دعاوى الصراع والصدام والنزاع ...، إلى مفاهيم أخرى تستمد أصولها من القرآن والسنة، وهي: التدافع، والمسارعة للخيرات، والتعاون، والتعارف ..

وعليه نتناول مضامين هذه الورقة بالدراسة والتحليل، في مقدمة، ومحورين اثنين، وخاتمة:

المقدمة:

المحور الأول: الأصول التكوينية للاختلاف:

أولاً: اختلاف الظواهر الكونية:

ثانياً: اختلاف الشرائع السماوية والوضعية:

ثالثاً: اختلاف الإدراكات العقلية:

رابعاً: اختلاف الميولات النفسية:

المحور الثاني: المقاصد التشريعية للاختلاف:

أولاً: التعاون على البر والتقوى:

ثانياً: التعارف الثقافي والتبادل الحضاري:

ثالثاً: الابتلاء والاختبار:

رابعاً: اهتداء الإنسان إلى الإيمان الحق:

خامساً: اهتداء الإنسان إلى حقيقة الاختلاف:

الخاتمة:

المحور الأول: الأصول التكوينية للاختلاف:

للاختلاف الإنساني أصولاً تكوينية تؤسس لشرعيته، هذه الأصول تعتبر مداخل لفهم الاختلاف، وفقهه الفقه الصحيح، ومن هذه الأصول: اختلاف الظواهر الكونية والطبيعية، واختلاف الشرائع السماوية والوضعية، واختلاف الإدراكات العقلية، واختلاف الميولات النفسية.

أولاً: اختلاف الظواهر الكونية:

إن الإيمان بشرعية اختلاف الناس والأمم ..، يستلزم الإيمان بأصل اختلاف الظواهر الكونية، لأنه المقدمة الأولى المؤسسة لشرعية الاختلاف في القرآن الكريم، وممهدة لقبوله، والاعتراف به بين البشرية، فمن أنكر هذه الحقيقة، سينكر اختلاف الناس والأمم .. ضرورة.

اختلاف الظواهر الكونية مشيئة إلهية، أرادها الحق سبحانه كونا، تأسيساً لشرعية الاختلاف والتنوع والتباين، والآيات القرآنية الدالة على هذا الأصل الكلي كثيرة، وما يميز الخطاب القرآني الدال على هذا الأصل أمران:

^١ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي(ت:١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط/١، ١/١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ٦٣٩/١.

^٢ - والمقصود بالظواهر، كل ما ظهر بارزاً للبصر والبصيرة، من غير خفاء، تقول ظهر الشيء: إذا حصل على ظهر الأرض، من غير خفاء، وعكسه ما يقع في بطن الأرض فيخفى، والظهر ضد البطن، وجاء هذا المعنى في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿أَوْ أَنَّ يُظْهَرَ فِي الْأَرْضِ الْقَسَادَ﴾ (غافر:٢٦) وقوله: ﴿نِعْمَةٌ ظَاهِرَةٌ

الأمر الأول: ورود الخطاب في سياق حجائي برهاني، لذلك عبر الخطاب القرآني عن هذه الظواهر الكونية بـ"الآيات"، أي "الآيات الكونية القدرية بمعنى العلامة".^١

والأمر الثاني: دلالة الخطاب بالنص الصريح على هذا الأصل، من غير اجتهاد، ولا تكلف تأويل. ولوضوح هذه الحقيقة وجلاتها في الخطاب القرآني، يمكن لقارئ القرآن الكريم الوقوف على هذا المعنى بغض النظر عن مستواه الفكري، أو ثقافته الشرعية، فنقتصر على ذكر بعضها على سبيل التمثيل لا الحصر:

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠)، وقال تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ١٣)، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ (الإنعام: ١٤١) فمختلفا أكله هي حال من الزرع، عامة، وأن النخل والجنات كذلك يصيبها هذا الاختلاف، والمقصود التذكير بعجيب خلق الله، وهي سنة الاختلاف في الطبيعة.

فهذه الآيات -وغيرها كثير في القرآن-، وإن تعددت سياقاتها، وتنوعت عباراتها، تدل على معنى مشترك، مفاده تنبيه المجتمع الإنساني، وخصوصا أولو الألباب، والعقول، والفطر السليمة، إلى هذا الاختلاف الحاصل في الظواهر الكونية، وإعلامهم بهذه الدلائل، والحجج الحسية الظاهرة المختلفة، التي يقوم عليها فهم وفقه الاختلاف في الرؤية القرآنية.

خلق الله تعالى الظواهر الكونية مختلفة، ويظهر ذلك من التقابل، والتباين، التضاد الموجود بينها، فكل ما في العالم، إن خلا من الضد أو المثل، فإنه لا يخلو من التركيب - جوهر وعرض - يقول الراغب الأصفهاني في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ﴾ (الداريات: ٤٩): "... فبين أن كل ما في العالم زوج من حيث أن له ضدا أو مثلا ما أو تركيبا ما بل لا ينفك بوجه من تركيب، وإنما ذكر ههنا زوجين تنبيها أن الشيء وإن لم يكن له ضد ولا مثل فإنه لا ينفك من تركيب جوهر وعرض وذلك زوجان"^٢، في هذه الآية دلالة على زوجية المخلوقات عامة.

يمكن حصر اختلاف الظواهر الكونية -بعد الاستقراء^٣ - في جانبين اثنين: الأول: جانب الشكل، والثاني: جانب الوظيفة. يبين القرآن الجانبين معا لاختلاف الظواهر الكونية في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوَنًا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّبَنَاتِنَا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (الأنعام: ٢٣) يقول الطبري: "ومن حججه عليكم أيها القوم، تقديره الساعات والأوقات، ومخالفته بين الليل والنهار، فجعل الليل لكم سكنا تسكنون فيه، وتنامون فيه، وجعل النهار مضيئا لتصرفكم في معاشكم والتماسكم فيه من رزق ربكم"^٤.

وَبَابِئِنَّهُ (لقمان: ٢٠) يعني بالطَّاهِرَةِ: ما نقف عليها، وبالباطنة: ما لا نعرفها، .. وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (التوبة: ٣٣) يصح أن يكون من البروز .. ينظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط/١، (١٤١٢هـ)، مادة: ظهر، ص: ٥٤٠-٥٤١. معجم ألفاظ القرآن الكريم، وضع: مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، جمهورية مصر العربية، القاهرة، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، مادة: (ظ ه ر)، ص: ٧٣٢. مختار الصحاح، الرازي (ت: ٦٦٦هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط/٥، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م)، مادة: (ظ ه ر)، ص: ١٩٧.

^١ - يقول الشنقيطي: "أن لفظ "الآية" يطلق في اللغة على معنيين: الأول: إطلاق "الآية" بمعنى العلامة وهو المشهور في كلام العرب، والثاني: بمعنى الجماعة يقال جاء القوم بأيهم أي بجماعتهم. أما إطلاقها في القرآن الكريم على معنيين أيضا: الأول: إطلاق الآية على الشرعية الدينية، كآيات القرآن العظيم، ومنه قوله هنا: ﴿بَلِّغْ آيَاتِ اللَّهِ تَلْوِيحًا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾. وأما الثاني: فهو إطلاق الآية على الآية الكونية القدرية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠). أما الآية الكونية القدرية فهي بمعنى الآية اللغوية التي هي العلامة، لأن الآيات الكونية علامات قاطعة، على أن خالقها هو الرب المعبود وحده. وأما الآية الشرعية الدينية، فقال بعض العلماء: إنها أيضا من الآية التي هي العلامة، لأن آيات هذا القرآن العظيم، علامات على صدق من جاء بها، لما تضمنته من برهان الإعجاز، أو لأن فيها علامات يعرف بها مبدأ الآيات ومنهاها. وقال بعض العلماء إنها من الآية بمعنى الجماعة، لتضمنها جملة وجماعة من كلمات القرآن وحروفه". ينظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي (ت: ١٣٩٣هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، ١٨٨-١٨٧/٧. (بتصرف).

^٢ - المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، مادة: زوج، ص: ٣٨٥.

^٣ - يقول الغزالي الاستقراء: "عبارة عن تصفح أمور جزئية، لنحكم بحكمها على أمر يشمل تلك الجزئيات ...". المستقصى من علم الأصول، الغزالي الطوسي (ت: ٥٠٥هـ)، دراسة وتحقيق: محمد سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط/١، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، ١٠٣/١.

^٤ - جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط/١، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ٨٧/٢٠.

واختلفت ألوان وأشكال الخلق في الأرض، من الدواب، والطيور، والشجر^١.. اختلافا في الطباع، والهيئات، والمناظر،^٢ يقول تعالى في ذلك: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (النحل:١٣)

بل تختلف الوظيفة بالنسبة للظاهرة الكونية الواحدة، كتصريف الرياح، التي يرسلها الله تعالى مرة نافعة تأتي بالمطر وتبشر به: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ (الروم:٤٦)،^٣ ومرة حارة، ومرة باردة ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ (آل عمران:١١٧)، ومرة طيبة ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَخَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ (يونس:٢٢)، ومرة لينة ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (ص:٣٦)، ومرة عقيمة ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ (الذاريات:٤١)، ومرة عذابا تدمر كل شيء بأمر ربها ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ (يونس:٢٢).^٤

جعل القرآن الكريم اختلاف هذه الظواهر في أشكالها، ووظائفها أمرا ضروريا يقول ولي الله الدهلوي: "أما هيئات الكواكب: فمن تأثيرها ما يكون ضروريا كاختلاف الصيف والشتاء، وطول النهار وقصره باختلاف أحوال الشمس، وكاختلاف الجزر والمد باختلاف القمر".^٥

كلها آيات كونية تؤسس لشريعة لاختلاف، بثها الحق سبحانه في الآفاق، لأهل العقول والألباب، علامات مختلفة في الشكل والوظيفة، تعرف الإنسان بخالقه، وترشده إلى فهم الحكمة من اختلافها، وتعددتها، فاختلفت هذه العوالم إشارة قرآنية قوية على الاعتراف بالاختلاف، والتأسيس لشريعته.

وهذا تكون هذه الرؤية التأسيسية، قد جعلت من الاختلاف في الظواهر الكونية سنة من سنن الله، وآية من آياته لا تبديل لها ولا تحويل.. يقول رشيد رضا أن من أصول شريعة القرآن الخاصة: "بيان أن للكون سننا مطردة تجري عليها عوامله العاقلة وغير العاقلة".^٦

ثانيا: اختلاف الشرائع السماوية والوضعية:

يؤسس القرآن الكريم لشريعة الاختلاف الإنساني، باختلاف الشرائع بين الأفراد، والجماعات، والأمم... فلم يشأ بإرادته التكوينية القدرية أن يكون الناس أمة واحدة، على شريعة واحدة، والاستدلال على هذا المعنى كثير جداً في القرآن^٧، يقول تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة:٤٨)، يروي الصنعاني عن معمر عن قتادة: "... الدين واحد، والشريعة مختلفة".^٨

وقوله تعالى ﴿جَعَلْنَا﴾ فيه دلالة على الإرادة التكوينية القدرية، لأن جعل في القرآن الكريم إذا أضيف إلى الله تعالى فهو على معنيين: الأول: بمعنى الخلق، والثاني: بمعنى التصيير، والمعنى الأول هو الأصل في الجعل^٩، وبذلك يكون اختلاف الناس في الشرائع والمناهج جعل الإلهي.

ويقول تعالى تأكيدا لهذا المعنى وتكميلا: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي الْأَمْرِ﴾، وقوله تعالى: ﴿لِيُذَكِّرَ الصَّامِعُ وَيَبْتَغِ وَصَلَاتٍ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا﴾، ويعلق ابن تيمية على الآيات السابقة بقوله: "فبين أنه هو جعل المناسك وذكر مواضع العبادات كما ذكر في البقرة الوجهة التي

^١ - تفسير مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان البلخي (ت:١٥٠هـ)، تحقيق: أحمد فريد، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط/١، ٢١٥/٢، (٢٠٠٣م/١٤٢٤هـ).

^٢ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل، القاضي البيضاوي (ت:٧٩١هـ)، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه: محمد صبيح بن حسن حلاق ومحمود أحمد الأطرش، دار الرشيد، دمشق، بيروت، مؤسسة الإيمان، بيروت، لبنان، ط/١، (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ٢٥٥/١٤.

^٣ - (الحجر:٢٢).

^٤ - (الإسراء:٦٩).

^٥ - حجة الله البالغة، شاه ولي الله الدهلوي، حققه وراجعها: السيد سابق، دار الجيل، ط/١، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، ٥١/١.

^٦ - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا (ت:١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٩٩٠م)، ٥٦/١.

^٧ قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (هود:١١٨-١١٩)، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَتَلَسَّأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٩٣)، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَتَلَسَّأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النحل:٩٣)، ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (المائدة:٤٨)، ﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (النحل:٩٣)، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٩٩).

^٨ - تفسير القرآن للإمام عبد الرزاق بن الهمام الصنعاني (ت:٢١١هـ)، تحقيق: مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط/١، (١٩٨٩هـ/١٩٩٠م)، ١٩٢/١.

^٩ - ينظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، جمال الدين ابن الجوزي (ت:٥٩٧هـ)، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، سوريا، ط/٣، (١٩٨٧/١٤٠٧م)، ص: ٢٢٨-٢٢٩.

يتوجهون إليها^١ قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّمًا فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾ (البقرة: ١٤٨). ويقول تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٤) و يروي الرازي عن الزجاج أن معنى "الشاكلة: الطريقة والمذهب".^٢

فإنه عز وجل جعل لكل أمة شرعة ومنهاج، فكان بذلك لليهود شرعة ومنهاج، وللنصارى شرعة ومنهاج، وللمسلمين شرعة ومنهاج^٣، يقول تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ (الحج: ٦٧) يقول ولي الله الدهلوي: "يعني شرعة هم عاملون بها".^٤

فهذه إرادة تكوينية قدرية وليست تشريعية، لأن الحق سبحانه لا يجهلها، ولم يأمر بها شرعاً، فالحق سبحانه يحب كل ما يأمر به شرعاً ويرضاه يقول الباقلاني: "الرضا بالشيء هو المدح له والثناء عليه والإثابة عليه وكونه ديناً وشرعاً، والله تعالى لا يرضى الكفر بمعنى أنه لا يمدحه ولا يثيب عليه ولا يرضى كونه ديناً وشرعاً، دون إرادة وجوده وخلقه، فاعلم ذلك"^٥، "فإن الله تعالى قضى بالمعاصي والكفر، بمعنى أنه أرادته وخلقه، وقدره، ولا يجوز أن يكون بمعنى أمر به واختاره ديناً وشرعاً ولا يمدحه ولا يثيب عليه...".^٦

ويقول الأشعري: "فإن قال قائل: فهل قضى الله تعالى المعاصي وقدرها؟ قيل له نعم، بأن خلقها، وبأن كتبها وأخبر عن كونها"^٧، فالله عز وجل خلق كثيراً من الخلق لجهنم ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ (الأعراف: ١٧٩)، وخلق بعضهم للعبادة ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦).^٨

ويقول أبو يعلى الحنبلي: "والله تعالى قضى المعاصي والكفر وقدرهما بمعنى خلقهما وكتبهما على الخلق وأعلمهم بهما، وأخبرهم عنهما لا على معنى أنه أمر بهما، وحكم بإيجابهما والزمامهما، وأراد أن يكون الكفر منهم غير أمر به، ولا نقول أراد لهم الكفر، لأن هذا يوهم أنه أباحه لهم وجعله حلالاً.. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ (العلق: ١-٢) فبين أن الشر خلق له".^٩

والشرائع السماوية على كثرتها يقول الإمام الشوكاني: "لم يبق بأيدي أهل الملل منها فيما وجدناه عندهم بعد البحث عن ذلك ومزيد الطلب له، إلا التوراة، والزيور، والإنجيل، وكتب نبوات أنبياء بني إسرائيل".^{١٠}

والقرآن الكريم لم يقتصر في خطابه على ذكر أصحاب الشرائع السماوية، بل ذكر إلى جانبهم شرائع وضعية، والمتأمل في الخطاب الإلهي يجده ذكر فئات الاختلاف ومسمياتها، ودعاهم إلى ضوابط تدبير اختلافاتهم يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ (البقرة: ٦٢)، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (الحج: ١٧).^{١١}

^١ - مجموع الفتاوى، ابن تيمية الحراني(ت:٧٢٨هـ)، تحقيق: عبد الرحمان بن محمد بن القاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، (١٤١٦هـ/١٩٩٥م)، ١١٤/١٩..

^٢ - مفاتيح الغيب(التفسير الكبير)، الرازي(ت:٦٠٤هـ)، دار الفكر، ط/١، (١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ٣٧/٢١.

^٣ - المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية(ت:٥٤٦هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ٢٠٠/٢.

^٤ - حجة الله البالغة، شاه ولي الله الدهلوي، ١٥٩/١.

^٥ - الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، القاضي الباقلاني(ت:٤٠٣هـ)، تحقيق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، ط/٢، (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، ص: ١٥٩.

^٦ - نفسه، ص: ١٦٠.

^٧ - كتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، الإمام أبي الحسن الأشعري(ت:٣٣٠هـ)، صححه وقدم له وعلق عليه: حمودة غرابة، مطبعة مصر، (١٩٥٥م)، ص: ٨١. الإبانة عن أصول الديانة، أبي الحسن الأشعري(ت:٣٣٠هـ)، دار ابن زيدون، بيروت، لبنان، ط/١، بدون طبعة، بدون تاريخ، ص: ٤٦.

^٨ - كتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، الأشعري، ص: ١١٣.

^٩ - المعتمد في أصول الدين، القاضي أبي يعلى الحنبلي، تحقيق: وديع زيدان حداد، دار المشرق، بيروت، ط/١، (١٩٨٦هـ)، ص: ١٢٩.

^{١٠} - إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات، محمد بن علي الشوكاني(١٢٥٠هـ)، صححه وضبطه: مجموعة من العلماء، بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/١، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م)، ص: ٥.

^{١١} - قد يتبادر للذهن من ظاهر هذه الآيات، نجات اليهود، والنصارى، والصابئون، والمجوس، والذين أشركوا إذا آمنوا بالله، واليوم الآخر، وعملوا الصالحات، وإن لم يتبعوا خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يعترفوا بنبوته، ولم يعترفوا برسالته، لكن المتتبع لسياقها، وما يتلوه من آيات، يجد على أن الآيات بصدد تنفيذ مزاعم اليهود والنصارى، وليست بصدد التشريع لهاذه الشرائع بعد بثثة الرسول الكريم، وإن كانت فيها إشارة إلى إقرار الاختلاف والإيمان بمشروعته في الدنيا، والقرآن يدعو البشرية جمعاء إلى اعتناق الإسلام، واتباع الرسول الخاتم، وهذا ما نعتقده، لكن الحكم في الآخرة إلى الله.

فالخطاب القرآني يذكر المسلمين، واليهود، والنصارى، وهم أهل شرائع سماوية، ويضيف إليهم الصابئة وهم ليسوا أهل شريعة سماوية، والمجوس وهم عبدة النار، والذين أشركوا، ويدعو الجميع إلى ضوابط تدبير هذا الاختلاف الحاصل بينهم وهي: طرفان وواسطة. فأما الطرفان: فالأول: الإيمان بالله تعالى، والثاني: الإيمان باليوم الآخر، أما الواسطة فهي: النبوة. الأمر الذي يحيل المتدبر للقرآن الكريم على حقيقة قرآنية، ضمن نظرية متكاملة لفقهِه شرعية الاختلاف، تؤسس لاختلاف الشرائع السماوية، والأديان الوضعية تبعاً، وفق الإرادة والمشئنة التكوينية، وتضع لهذه الإرادة والمشئنة التكوينية ضوابط تشريعية - ضمن فقهِه الانتلافي، من أجل ضبط وإحكام الإرادة التكوينية بالإرادة التشريعية. والاستقراء لآيات الكتاب الحكيم، يدلنا على هذا الأصل الكلي المؤسس لشرعية للاختلاف، وهو اختلاف البشرية في الشرائع، والأديان الوضعية، وأن هذا الأصل تقتضيه إرادة الله التكوينية لا التشريعية، لأن الأمر الشرعي يقتضي الدخول في الإسلام، الرسالة الخاتمة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم.

ثالثاً: اختلاف الإدراكات العقلية^١:

الاختلاف الإنساني مشئنة إلهية، لاختلاف المدارك والعقول الإنسانية التي ركبها فيهم^٢، فهي في أصل خلقهم يقول ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (النحل: ٩٣) اقتضت: "مشئنة الله تعالى أن يخلق الناس على هذا الاختلاف الناشئ عن اختلاف أحوال التفكير ومراتب المدارك والعقول"^٣، فالاختلاف يتأسس على اختلاف العقول في الفهم والإدراك للحقائق^٤. ويقول محمد رشيد رضا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩-١٠١) "علم الله تعالى رسوله بهذه الآيات أن من سننه في البشر أن تختلف عقولهم وأفكارهم في فهم الدين وتتفاوت أنظارهم في الآيات الدالة عليه فيؤمن بعض ويكفر بعض..."^٥.

ويقول الغزالي في رده على من أنكر تفاوت العقول بين الناس: "قد اختلف الناس في تفاوت العقل، ولا معنى للاشتغال بنقل كلام من قل تحصيله..."^٦، ويقول أبو سليمان المنطقي: "منازل الناس متفاوتة في العقل وأنصباؤهم مختلفة فيه"^٧، فما يراه شخصاً أمراً عقلياً منطقياً، قد يخالفه غيره في عقلانيته ومنطقيته.

^١ - والتعبير بأن حقائق العلوم تدرك بالعقول، متداول عند أهل الصناعة الأصولية، يقول الجويني: "القول في العلوم ومداركها وأدلتها.. فإننا سنسند حقائق العلوم إلى مدارك العقل". البرهان في أصول الفقه، الجويني(ت:٤٧٨هـ)، تحقيق: عبد العظيم الديب، دولة قطر، ط/١، (١٣٩٩هـ)، ١/١١١. ويقول الغزالي العقل: "الصفة الباطنة التي يتميز بها الأدمي عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور". إحياء علوم الدين، ومعها المعنى عن حمل الأسفار في الأسفار، الغزالي(ت:٥٠٥هـ)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ١/١٠٥، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، ص: ١٠٥. ويقول الرازي أن هناك ألفاظ يظن بها أنها مرادفة للعلم وهي ثلاثون ومنها: "الإدراك وهو اللقاء والوصول يقال أدرك الغلام وأدركت الثمرة قال تعالى: ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُرْكُونَ﴾ (الشعراء: ٦١) فالقوة العاقلة إذا وصلت إلى ماهية المعقول وحصلتها كان ذلك إدراكاً من هذه الجهة". مفاتيح الغيب، للفخر الرازي، ٢/٢٢٢. ويقول الماوردي: "واعلم أن بالعقل تعرف حقائق الأمور ويفصل بين الحسنات والسيئات". أدب الدنيا والدين، الماوردي(ت:٤٥٠هـ)، شرح وتعليق: محمد كريم راجح، ط/٤، (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ص: ٨. ويقول ابن رشد العقل: "ليس هو أكثر من إدراك الموجودات بأسبابها، فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل". مباحث الفلاسفة، ابن رشد، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، ط/١، (١٩٦٤م)، ص: ٧٨٥.

^٢ - الراغب الأصفهاني والسمين الحلبي، يذكران لنا إطلاقاً للعقل في القرآن الكريم: الإطلاق الأول: "القوة المهيئة لقبول العلم" بمعنى: القوة العاقلة في الإنسان، أي ما يطلق عليه الفقهاء "مناط التكليف"، والإطلاق الثاني: "العلم المستفاد من تلك القوة" بمعنى: المعقول المدرك والمستفاد بواسطة القوة العاقلة. ينظر: المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، مادة: عقل، ص: ٥٧٧-٥٧٨. عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، السمين الحلبي(ت:٧٥٦هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/١، (١٤١٧هـ/١٩٩٦م)، ٣/١٠٧.

^٣ - والقصود بالعقل في هذه الدراسة، العقل "الألة" أو "الغريزة" أو "الصفة" أو "أداة الإدراك" أو "القوة المهيئة لقبول العلم"، وهي "مناط التكليف"، وكل هذه الألفاظ تعبيرات للعلماء، وخصوصاً الأصوليين منهم، على هذه القوة المدركة في الإنسان. ينظر: المفردات في غريب القرآن، الأصفهاني، مادة: عقل، ص: ٥٧٧-٥٧٨.

^٤ - العقل وفهم القرآن، الحارث المحاسبي(ت:٢٤٣هـ)، تحقيق: حسين القوتلي، دار الفكر، ط/١، (١٣٩١هـ/١٩٧١م)، ص: ٢٠١. المستصفي من علم الأصول، الغزالي، ١/٦٤. المسودة في أصول الفقه، آل تيمية، الجد: مجد الدين عبد السلام بن تيمية(ت:٦٥٢هـ)، الأب: عبد الحلیم بن تيمية(ت:٦٨٢هـ)، الابن الحفيد: أحمد بن تيمية(ت:٧٢٨هـ)، تحقيق: أحمد بن إبراهيم عباس الذروي، دار الفضيلة، الرياض، ط/١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ص: ٩٨١. البرهان في أصول الفقه، الجويني، ١/١٢٢-١١٣. المنخول من تعليقات الأصول، الغزالي(ت:٥٠٥هـ)، تحقيق: الدكتور محمد حسن هيتو، دار الفكر، دمشق، ط/٢، (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م)، ص: ٤٥.

^٥ - التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٤/٢٦٧.

^٦ - وقسم طه عبد الرحمان العقل إلى: العقل المجرد، والعقل المسدد، والعقل المؤيد. ينظر: الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، طه عبد الرحمان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط/١، (٢٠٠٥م)، ص: ٦٦.

^٧ - الوحي المحمدي، ثبوت النبوة بالقرآن ودعوة شعوب المدينة إلى الإسلام دين الأخوة الإنسانية والسلام، محمد رشيد رضا، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ط/٣، (١٤٠٦هـ)، ص: ٢٧٤.



فإن الله تعالى خلق العقل في الإنسان بإرادته التكوينية، يقول الإيجي: "قال الحكماء أول ما خلق الله تعالى العقل"^٣، وليس هو من فعل الإنسان، أكرمه به ليميز بين الأشياء وأضدادها يقول الشافعي إن الله تعالى: "صوب الاجتهاد .. مما فرض عليهم منه، بالعقول التي ركب فيهم، الميزة بين الأشياء وأضدادها"^٤.

ونقل الزركشي هذا المعنى عن الشافعي وشرح الصيرفي له: "قال الصيرفي في شرحها: بين الشافعي أن العقل معنى ركبه الله في الإنسان أي خلقه فيه لا أنه فعل الإنسان كما زعم بعض الناس"^٥، فثبت أن العقل جعل إلهي ركبه الله تعالى في الإنسان، فكان "الاختلاف دائم بينهم لأنه من مقتضى ما جبلت عليه العقول"^٦.

نجد في الواقع المحسوس الملموس اختلاف الناس في الإدراك العقلي، فبعضهم أكثر إدراكا من بعض، يقول ابن عاشور: "العقل متفاوتون في إدراك الواضح على قدر القرائح والعلوم"^٧، وهذا يدل دلالة واضحة على تفاوت العقول بين الناس، إذ لو كانت متساوية لما وُجد ذلك الاختلاف، والدراسات الحديثة توصلت إلى تعدد الدكاءات واختلافها، إلا أن الواقع البشري أكبر دليل على الاختلاف والتفاوت في العقول بين الجنس البشري، واختلاف العقول أدى بالتالي إلى اختلاف النتائج العلمية.

مع أن العقل البشري يختلف حسب التأثيرات الناتجة عن المحيط، والبيئة، والجو، والعادات، والتقليد .. إلى غير ذلك من التأثيرات الخارجية .. زيادة على أن من هذه التأثيرات ما هو إيجابي نافع، ومنها ما هو سلبي ضار، فتتعدد المذاهب، والمناهج، والفلسفات، والعقلانيات ..

فإن العقول الإنسانية تتفاوت وتختلف في النظر إلى الحقائق، بحسب موقع كل إنسان، فموقع العالم غير موقع الجاهل، وموقع من تعود البرهان غير موقع من تعود الجدل والمناظرة، وكلاهما غير من تعود الموعدة ..^٨

فإذا ثبت تفاوت الخلق في الإدراك العقلي للحقائق، وثبت أن ذلك واقع فيهم بإرادته التكوينية، فإن هذا الاختلاف في العقول موقع في اختلافات كثيرة، هو أصل قوي من أصول شرعية الاختلاف في الخطاب القرآني.

رابعا: اختلاف الميولات النفسية:

حكمت إرادة الله تعالى التكوينية على الناس بالاختلاف، وذلك لخضوع الإنسان إلى شهواته، وميولاته النفسية، والعاطفية .. بغض النظر عن كونها مباحة، أو غير مباحة، وأشار القرآن الكريم إلى هذه الإرادة بقوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَالِ﴾ (آل عمران: ١٤) يقول الزمخشري: "المزين هو الله سبحانه وتعالى وللابتلاء .. ﴿حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ جعل الأعيان التي ذكرها شهوات مبالغة في كونها مشتهة محروصا على الاستمتاع بها .."^٩

فإن "الحرص والتعلق بالشهوات والأهواء -وخاصة فيما هو مباح منها- تختلف آراء الناس وتصرفاتهم واختياراتهم"^{١٠}، والشهوة: "أقدم القوى وجودا في الإنسان، وأشدّها به تشبها، وأكثرها منه تمكنا، فإنها تولد معه وتوجد فيه وفي الحيوان الذي هو جنسه .."^{١١}

ويميز الراغب الأصفهاني في كتابه "الذريعة" بين الشهوة المحمودة، والتي هي من فعل الله تعالى، والمذمومة والتي هي من فعل الإنسان و"قيل: الشهوة ضريان: محمودة ومذمومة. فالمحمودة من فعل الله سبحانه، وهي قوة جعلت في الإنسان لتتبعث بها النفس لنيل ما يظن

^١ - إحياء علوم الدين، ومعه المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، الغزالي، ص: ١٠٣.

^٢ - أخبار العلماء بأخبار الحكماء، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت: ٦٤٦هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/١، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)، ص: ٧١.

^٣ - كتاب المواقف، عضد الدين أحمد الإيجي، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط/١، (١٩٩٧م)، ٦٨٤/٢.

^٤ - الرسالة، الشافعي (ت: ٢٠٤هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة الحلبي، مصر، ط/١، بدون طبعة، بدون تاريخ، (١٣٥٨هـ/١٩٤٠م)، ٢٤/١.

^٥ - البحر المحيط في أصول الفقه، الزركشي الشافعي (ت: ٧٩٤هـ)، حرره: عبد القادر عبد الله العاني، راجعه: عمر سليمان الأشقر، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ط/٢، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م)، ٨٤/١.

^٦ - التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٨٩/١٢.

^٧ - أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ابن عاشور، الشركة التونسية، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط/٢، (١٩٨٥م)، ص: ٢١.

^٨ - أزمة العقل المسلم، عبد الحميد أحمد أبو سليمان، المعهد العالمي لفكر الإسلام، سلسلة إسلامية المعرفة (٩)، هيرندن، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط/١، (١٤١٢هـ/١٩٩١م)، ص: ١٣٨.

^٩ - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط/٣، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، ١٦٣/٣.

^{١٠} - التعدد التنظيمي للحركة الإسلامية ما له وما عليه، أحمد الرسوني، دار الكلمة، مصر، القاهرة، ط/١، (١٤٣٤هـ/٢٠١٣م)، ص: ١٦.

^{١١} - كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة، الأصفهاني (٥٠٢هـ)، تحقيق: أبو يزيد أبو زيد العجمي، دار السلام، القاهرة، ط/١، (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م)، ص: ٩٩.

فيه صلاح البدن. المدمومة من فعل البشر.. وهي استجابة النفس لما فيه لذتها البدنية، والهوى هو هذه الشهوة الغالبة إذا استتبعته الفكرة..^١

ويقول رحمه الله تعالى في اختلاف غرائز الخلق: "الناس في غرائزهم مختلفون، فبعضهم جبلوا جبلة سريعة القبول، وبعضهم جبلوا جبلة بطيئة القبول، وبعضهم في الوسط.."^٢، يقول أبو زهرة: "الأحاد يتنازعون استجابة لغرائز كل واحد منهم، إذ أنه حيث استجاب كل واحد لغرائزه، تصطدم إرادته مع إرادة الآخر الذي استجاب هو أيضا لغرائزه، فيكون التناحر حيث تصطدم الشهوات وتتنازع الإرادات وكل يحب لنفسه الاستيلاء على أكبر قدر من المطالب والوصول إلى أقصى ما يحب من الغايات"^٣.

ويقول دراز: "إن النفس البشرية جبلت على نزعتي الرضا والغضب، وطبعت على غريزتي الحب والكراهية، والعفو والقصاص، والمثالية تأتي إلا أن تطبع النفس -فحسب- بطابع الرضا والحب والعفو، وهذه هي المثالية الخيالية التي لا طاقة للنفس البشرية بها"^٤، "أليس كل بشر يحب ويكره، ويرضى ويغضب، ويوالي ويعادي، ولني على كائن من البشر لا يبغض ولا يعادي أحدا، أقل لك إنه إذا لا يحب ولا يوالي أحدا، إنه إذا ليس من البشر.. هبه خيرا محضا، فهو إذا يحب الحق والخير، وبالتالي يحب أهل الحق والخير ويواليهم، وهو إذا يكره الإثم والباطل، وبالتالي يكره أهل الإثم والباطل ويعادهم، فإن لم يبغض هؤلاء فكيف يحب أولئك؟ وإذا كانت هذه هي طبيعة النفس الإنسانية فكيف تطالبنا بأن نجرد أنفسنا تجريدا كاملا عن نزعة الكراهية والبغض لأحد من الخلق، أليست هذه مطالبة لنا بما هو فوق طاقتنا، وتكليفنا بما ليس في وسعنا، ثم هذه المحبة العالمية المثالية الخيالية، كيف تتفق مع واقعية الإسلام، بل مع وصايا الإسلام؟ أليس من علامة الإيمان الحب في الله والبغض في الله؟"^٥

والميل النفسي يؤثر في التحقيق العلمي، ويغطي على العقل الإنساني..، يقول أبو زهرة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقَضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ (هود: ١١٠) "ترتب على إتياء الله تعالى موسى الكتاب الاختلاف، وهذا يدل على أن الاختلاف ليس ناشئا من ذلك الكتاب، بل هو ناشيء من فساد النفوس وإذا فسدت النفوس لا يقنعها الدليل، ولا يهديها البرهان مهما يكن حاسما.."^٦

فإن الاختلاف لا يمكن إزالته وارتفاعه إلا بزوال الإنسان، لأن الاختلاف من أصل خلقته، وهذا ما يؤسس لشرعية الاختلاف يقول البطلبوسي: "الاختلاف مركوزا في فطرنا مطبوعا في خلقنا.. لا يمكن ارتفاعه وزواله إلا بارتفاع هذه الخلقة"^٧.

فالاختلاف الجبلة قاضي بالاختلاف والنزاع، بمقتضى إرادة الله التكوينية، فكان الاختلاف علة غائية لخلقهم لقوله تعالى ﴿وَلَدَلِكْ خَلَقَهُمْ﴾ (هود: ١٨-١٩) يقول ابن عاشور أن الله عز وجل لما خلق الناس: "على جبلة قاضية باختلاف الآراء والنزعات، وكان مريدا لمقتضى تلك الجبلة، وعالمًا به.. كان الاختلاف علة غائية لخلقهم"^٨.

القرآن الكريم يؤصل لشرعية الاختلاف بالميوولات النفسية، لأن الحق سبحانه خلق للإنسان طاقة حيوية، عبارة عن مجموعة من الغرائز، والحاجات العضوية، تميل إليها النفس الإنسانية، وتكون مدفوعة إلى تلبيتها وإشباعها، فهي إرادة إلهية قدرية حكم بها الله تعالى على الخلق، وهذه الميوولات النفسية متعددة، ومختلفة من إنسان إلى آخر، والحرص والتعلق بها -مباحة أو مذمومة- يؤدي إلى اختلاف آراء الناس وتصرفاتهم واختياراتهم، يقول ابن عاشور: "فإن الاختلاف في أصول الأحوال النفسانية يجر إلى تعذر الانتلاف"^٩.

وبالجملة، اختلاف الظواهر الكونية، واختلاف الشرائع السماوية والوضعية، واختلاف الإدراكات العقلية، واختلاف الميوولات النفسية، واختلاف الناس من ذكر وأنثى، واختلافهم في الألسن والألوان، والشعوب والقبائل.. أصول تكوينية تؤسس لشرعية الاختلاف البشري، وفيها دلالة قوية على الاعتراف بالتنوع والتعدد والتباين.. المثمر والمنتج، ورفض هذه الحقيقة القرآنية الكونية، أو عدم فهمها واستيعابها، يحول خلافتنا إلى نزاعات وحروب وقتن..

^١ - نفسه، ص: ٩٤.

^٢ - نفسه، ص: ٩٩.

^٣ - المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، محمد أبو زهرة، الدار السعودية، جدة، ط/٢، (١٤٠١هـ/١٩٨١م)، ص: ٤٦.

^٤ - نظرات في الإسلام، عبد الله دراز، (١٣٩٢م/١٩٧٢م)، ص: ٨٨.

^٥ - نفسه، ص: ٩٤.

^٦ - زهرة التفاسير، أبو زهرة (ت: ١٣٩٤هـ)، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون طبعة، بدون تاريخ، ص: ٣٧٥٨-٣٧٥٩.

^٧ - الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم، ابن السيد البطلبوسي (ت: ٥٢١هـ)، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، سورية، ط/٣، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧)، ص: ٢٧.

^٨ - التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٨٩/١٢-١٩٠.

^٩ - أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ابن عاشور، ص: ١٠-١١.

المحور الثاني: المقاصد التشريعية للاختلاف:

من مقاصد الاختلاف الإنساني، والخلق الإلهي لبني آدم، مختلفين في الألسنة والألوان، والقبائل، والشعوب، والأمم –بالإضافة إلى الأصول التي سبق ذكرها في المحور الأول- والطبائع، والمعتقدات، والأفكار، والآراء... التعاون على البر والتقوى (أولاً)، والتعارف الثقافي والتبادل الحضاري، بين الرجال والنساء، بين أهل الأديان والشرائع، بين المذاهب والمدارس الفكرية، بين الدول والشعوب والقبائل... بين الحضارة والثقافات.. (ثانياً)، كما أن من مقاصد هذا الاختلاف: الابتلاء والاختبار للخلق (ثالثاً)، واهتداء الإنسان إلى الإيمان الحق: وذلك بالنظر في عوالم الكون المختلفة (رابعا)، واهتداء الإنسان إلى حقيقة الاختلاف، أي فهم الاختلاف: وذلك بالنظر إلى أن هذا الاختلاف يهدي إلى سبل وطرق الائتلاف (خامساً).

أولاً: التعاون على البر والتقوى:

إن البشرية لو كانت متطابقة، وغير مختلفة، لما كانت هناك أهمية للتعاون، فالتعاون يقتضي التباين، والتميز، والتباين، والتعدد في الأفكار والمواقف... وهذا ما يعطي للتعاون ثمرته، المفضية إلى التكامل الإنساني، لذلك أمر القرآن بمقصد التعاون، اعترافاً منه بمشروعية الاختلاف.

ومقصد التعاون الإنساني، رؤية قرآنية لترك الصراع، والصدام، والنزاع... واستثمار الاختلاف يقول الشيخ النورسي أن حكمة القرآن: "تتخذ دستور "التعاون" أساساً في الحياة، بدلا من دستور "الصراع".. وشأن "التعاون" هو "إغاثة كل للآخر".."¹، ويقول عن المدينة التي يقرها القرآن: "دستورها في الحياة: التعاون بدلا من الجدل والصراع، والتعاون من شأنه: الاتحاد والتساند"².

ومن أدلة مقصد التعاون الإنساني، تسخير الخلق بعضهم لبعض، فإن الإنسان اجتماعي بطبعه، يحتاج في قضاء حوائجه إلى تسخير غيره، والاستعانة به في الأمور التي لا علم له بها، أو لا قدرة له عليها... وهذا ما يجعله في حاجة إلى التعاون مع المخالف يقول تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةٌ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف: ٣٢) يقول السعدي: "وفي هذه الآية تنبيه على حكمة الله تعالى في تفضيل الله بعض العباد على بعض في الدنيا ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي ليسخر بعضهم بعضاً، في الأعمال والحرف والصنائع، فلو تساوى الناس في الغنى، ولم يحتج بعضهم إلى بعض، لتعطلت كثير من مصالحهم ومنافعهم"³.

ويقول ولي الله الدهلوي: "لما كان الناس مدنيين بالطبع، لا تستقيم معاشهم إلا بتعاون بينهم، نزل القضاء بإيجاب التعاون"⁴، ويقول الراغب: "... فالتباين والتفرق والاختلاف في نحو هذا الموضوع سبب الائتلاف والاجتماع والاتفاق، كاختلاف صور الكتابة وتباينها وتعددتها الذي لولاه لما حصل لها نظام"⁵.

ويقول سيد قطب إن الإنسانية في التصور الإسلامي: "وحدة تفتقر أجزاءها لتجتمع، وتختلف لتتسق، وتذهب شتى المذاهب لتتعاون في النهاية بعضها مع بعض، كي تصبح صالحة للتعاون مع الوجود الموحد"⁶.

ونص الخطاب القرآني على مقصد التعاون على كل بر وتقوى، والنهي عن كل إثم وعدوان قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: ٢) والخطاب هنا موجه إلى

¹ - كليات رسائل النور(١)، الكلمات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، مصر، ط/٤، (٢٠٠٤م)ص: ٤٧٣.

² - نفسه، ص: ٦٠٧.

³ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي(ت:١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحي، مؤسسة الرسالة، ط/١، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م)، ص: ٧٦٤/١.

⁴ - حجة الله البالغة، شاه ولي الله الدهلوي، ١٦٠/٢.

⁵ - كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، ص: ٢٦٦.

⁶ - العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط/١٣، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، ص: ٢٣.

⁷ - يقول ولي الله الدهلوي: "قالبر كل عمل يفعله الإنسان قضية لانقياده للملا الأعلى واضمحلاله في تلقي الإلهام من الله وصورته فانيا في مراد الحق، وكل عمل يجازى عليه خيرا في الدنيا أو الآخرة، وكل عمل يصلح الارتفاقات التي بني عليها نظام الإنسان، وكل عمل يفيد حالة الانقياد ويدفع الحجب". أنظر: حجة الله البالغة، الدهلوي، ١١٤/١.

⁸ - ويقول ولي الله الدهلوي: "الإثم كل عمل يفعله الإنسان قضية لانقياده للشيطان وصورته فانيا في مراده، وكل عمل يجازى عليه شرا في الدنيا أو الآخرة، وكل عمل يفسد الارتفاقات، وكل عمل يفيد هيئة مضادة للإنقياد، ويؤكد الحجب". نفسه.

⁹ - وقيل في سبب نزول هذه الآية: "وهذه الآية نزلت عام الفتح حين أراد المؤمنون أن يستطيلوا على قريش وألفاها من القبائل المتظاهرين على صد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه عام الحديبية وذلك سنة ست من الهجرة فصلمت بذلك بغضة في قلوب المؤمنين وحسيكة للكفار فليل للمؤمنين عام الفتح وهو سنة ثمان لا يحملنكم ذلك البغض أو أولئك البغضاء من أجل أن صدوكم على أن تعتدوا عليهم إذ لله فهم إرادة خير وفي علمه أن منهم من يؤمن كالذي كان

المجتمع الإنساني بكل أفراد، ومنظمات، وجمعياته، ودوله، وحضاراته وثقافته... قال الإمام القرطبي: "وهو أمر لجميع الخلق بالتعاون على البر والتقوى"، ويقول ابن حزم في تأكيد عموم الخطاب للخلق في الأمر بالتعاون: "التعاون على البر والتقوى فمتوجه إلى كل اثنين فصعدا..".^١

وقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ يشمل الأعمال الخيرية، والمشاريع الاجتماعية في التعليم، والصحة، والاقتصاد، والإسكان.. وغيرها، "قال ابن خويز مندداً في أحكامه: والتعاون على البر والتقوى يكون بوجه، فواجب على العالم أن يعين الناس بعلمه فيعلمهم، ويعينهم الغني بماله، والشجاع بشجاعته.."^٢، ولا شك أن هذا تمثيل لا حصر، فكل ما ينطبق عليه مسمى البر والتقوى، يجب فيه التعاون، "وكل عمل يصلح الارتفاقات التي بني عليها نظام الإنسان"^٣، فهو من البر، الذي يجب التعاون عليه.

فكل الأعمال الصالحة والنافعة، الظاهرة والباطنة، الضامنة لحقوق الله، وحقوق الناس، وفعل محاب الله تعالى، واجتناب مكارهه، فهو تعاون على البر والتقوى^٤، "وقال الماوردي: ندب الله سبحانه إلى التعاون بالبر وقرنه بالتقوى له، لأن في التقوى رضا الله تعالى، وفي البر رضا الناس، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس فقد تمت سعادته وعمت نعمته.."^٥، فالقرآن خطاب هداية الناس، إلى ما يصلح علاقاتهم مع خالقهم، من غير أن يغفل الواجب الاجتماعي والإنساني، المتعلق بعلاقات الناس فيما بينهم، وإدارة اختلافاتهم.

والنهي عن التعاون على الإثم والعدوان ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾، يكون بمحاسبة المفسدين، ورد المعتدين والمغتصبين، وتفصيل القوانين الدولية، بخصوص المخالفات التي تقوم بها بعض دول الاستكبار العالمي، أو المنظمات التابعة لها، وتفصيل القوانين الوطنية والمحلية.

فالواجب ترك العدوان، والتعاون على منعه، ورفضه وإدانته.. يقول السعدي: ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ وهو التعدي على الخلق في دماءهم وأموالهم وأعراضهم، فكل معصية وظلم يجب على العبد كف نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه..^٦

ثانياً: التعارف الثقافي والتبادلي الحضاري:

وإذا كان من مقاصد الاختلاف التعاون الإنساني، فإنه لا تعاون بدون تعارف، فالتعاون الإنساني، لا يقوم، ولا يثمر، إلا على أساس التعارف الإنساني، فلا تعاون حقيقي بدون تعارف^٧ يقول الإمام السيوطي في إشارة إلى هذا المعنى: "أن الإنسان الواحد وحده لا يستقل بجميع حاجاته بل لا بد من التعاون ولا تعاون إلا بالتعارف.."^٨، وفتح قنوات الحوار والتواصل من أجل التكامل المعرفي والأخلاقي.. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣) يقول النورسي: "أي: خلقناكم طوائف وقبائل وأما وشعوبا كي يعرف بعضكم بعضاً وتتعرفوا على علاقاتكم"^٩.

والتعارف معناه تبادل المعرفة والخبرة بين الأفراد، والمذاهب والمدارس الفكرية، وبين الأمم والحضارات... لتحقيق البقاء، والرخاء، والهناء للبشرية جمعاء، والتعارف ليس معناه الاجتماع حول طاولة، لتبادل الآراء ليس إلا، بل الحوار الحضاري، أو التعارف بالمفهوم القرآني، يعني ذلك، ويعني بالأساس تبادل المنتجات الحضارية، ذات القيمة الإنسانية، سواء كان إنتاجاً مادياً، أو إنتاجاً معنوياً، يقول طه

وحكى المهدي عن قوم أنها نزلت عام الحديبية لأنه لما صد المسلمون عن البيت مر بهم قوم من أهل نجد يريدون البيت فقالوا نصد هؤلاء كما صدنا فنزلت الآية. "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، ١٤٩/٢-١٥٠.

^١ - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (ت: ٦٧١هـ)، تحقيق: هشام سميح البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م)، ٤٦/٦.

^٢ - الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الظاهري (ت: ٤٥٦هـ)، تحقيق: الدكتور محمد إبراهيم نصر، عبد الرحمان عميرة، دار الجيل، بيروت، ١٢٩/٤-١٣٠.

^٣ - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤٦/٦.

^٤ - حجة الله البالغة، الدهلوي، ١١٤/١.

^٥ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، ٢١٨/١.

^٦ - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤٦/٦-٤٧.

^٧ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، ٢١٨/١.

^٨ - إذا اختارت أمتين مختلفتين في التعامل الفكري بينهما طريق التعارف، يطلق طه عبد الرحمن على هذه الصورة "الاختلاف اللين". وإذا اختارتا في التعامل الفكري بينهما طريق التعاون فهو "الاختلاف الصلب"، لأن التعاون لا يمنع من إتيان المنكر، ولا يسمح بالتبادل الفكري من جهتين، بل تلقي إحدى الجهتين بفكرها إلى الأخرى، ولا تتلقى منها فكرها، وعليه فإن تدبير الاختلاف تعارفاً أفضل من تدبير الاختلاف تعاوناً. ينظر: الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، طه عبد الرحمن، ص: ١٤٣-١٤٤.

^٩ - المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبد الرحمن السيوطي، شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته وعلق حواشيه: محمد أحمد جاد المولى بك، محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط ٣، ٢٨/١. رغم أن السياق الذي استعمل فيه السيوطي العلاقة بين التعارف والتعاون مختلف عن سياقنا، إلا أنه يمكننا استعارة هذا المعنى، وتوظيفه في سياق دراستنا.

^{١٠} - كليات رسائل النور (٢)، المكتوبات، بديع الزمان سعيد النورسي، ص: ٤١٣.



عبد الرحمن: "ينبغي لكل أمة من الأمم في الواقع الكوني أن تبذل أقصى الجهد في الإتيان بأفضل الأعمال والتصرفات في التعامل مع الأمم الأخرى كما يبذلها الأشخاص فيها في تعامل بعضهم مع بعض".^١

والتعارف ضرورة شرعية، لكون أمة الإسلام أمة شهادة قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣) ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ٨).

فالتنوع والاختلاف البشري من ذكر وأنثى، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، متفرقة إلى شعوب وقبائل وأمم، مختلفة الطبائع والأخلاق، مختلفة في المواهب والاستعدادات، مختلفة الألوان والألسنة، مختلفة في الشرائع والمناهج، مختلفة في الفكر والثقافة والحضارة ... هذا التنوع والاختلاف يقول عبد الله السعدي: "لأجل أن يتعارفوا، فإنهم لو استقل كل واحد منهم بنفسه، لم يحصل بذلك، التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون^٢، والتوارث، والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوبا وقبائل، لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها، مما يتوقف على التعارف .."^٣.

إن الاختلاف والتعدد يفضي إلى التعارف، المفضي بدوره إلى التعاون، لأن المخالف يتطلع إلى قضاء حوائجه، وتحقيق مصالحه من المخالف يقول السيد محمد حسين فضل الله: "فالتنوع هو الوسيلة الفضلى للتعارف، لأنه يفضي إلى انجذاب الإنسان إلى الإنسان الآخر، لبناء علاقات تسد الحاجات الخاصة، وتتبادل الإفادة من الطاقات المتنوعة"^٤.

فالتنوع والتعدد لا يقتضي التنازع، والشقاق، والافتراق، والصدام والصراع .. بل يتطلب التعاون القائم على التعارف، من أجل الألفة والوفاق، والقيام بالاحتياجات الإنسانية العامة .. يقول سيد قطب في المقصد من اختلاف الخلق: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ" والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم .. من ذكر وأنثى .. وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوبا وقبائل، إنها ليست التنافر والخصام، إنما هي التعارف والوئام، فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطبائع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات، فتتوقف على مقتضى النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للهوض بجميع التكليف والوفاء بجميع الحاجات .."^٥.

والتعاون والتعارف كما دعا إليه القرآن الكريم، ضرورة اقتضتها المواطنة ووحدة الدار، فلا يمكن بناء الأوطان وتميمتها في ظل الإقصاء أو النزاع الطائفي والديني أو الحزبي، فبناء دولة المؤسسات اليوم تقتضي التعاون، وفتح قنوات التواصل والتعارف، من أجل العيش المشترك يقول محماد رفيع: "فالتعارف أساس دعا إليه القرآن، وضرورة أمتها ظروف المشاركة في الدار أو الوطن بالتعبير العصري، وإعمال لروح الأخوة الإنسانية بدلا من إهمالها، فقد نص القرآن الكريم بإطلاق، ومن غير تقييد ولا تخصيص، (يقصد: الحجرات الآية: ١٣) أن من مقاصد التنوع بين البشر التعارف والتعاون .."^٦.

ثالثا: الابتلاء والاختبار:

قال تعالى في مقصد ابتلاء الجنس الإنساني بعضه ببعض لاختلافهم: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ (الفرقان: ٢٠) يقول الإمام الرازي في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان: ٣) حكاية لأحد الأقوال في الآية: "معناه إنا هديناه السبيل، ليكون إما شاكرا وإما كفورا أي ليميز شكره من كفره وطاعته من معصيته"^٧.

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: ٢)، ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت: ٣)، ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ (محمد: ٣١) فإن إرادة الله ابتلاء الخير بالشر، والمهتدين بالضالين .. ﴿وَلِيُمَجِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤١).

فإن الأرض هي دار الابتلاء الإنساني قال تعالى: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (الأعراف: ٢٤) يقول أبو زهرة: "ليست الجنة دار ابتلاء، إنما الأرض هي دار الابتلاء التي يتنازع فيها الخير والشر، والحق والباطل، والبر الفاجر، وهي دار الابتلاء فيها تتجلى عداوة إبليس ومن

^١ - الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، طه عبد الرحمن، ص: ١٧٤.

^٢ - وكلام عبد الله السعدي هنا ينضاف إلى ما نقلناه عن السيوطي قبل، في معنى تأسيس التعاون على التعارف.

^٣ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، ١/٨٠.

^٤ - الاجتهاد بين أسر الماضي وآفاق المستقبل، محمد حسين فضل الله، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط/١، (٢٠٠٩م)، ص: ١٩.

^٥ - في ظلال القرآن، سيد قطب (ت: ١٣٨٧هـ)، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط/٣٢٢، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م)، ٣٣٤٨/٢٦.

^٦ - النظر الشرعي في بناء الائتلاف وتدابير الاختلاف: دراسة تأصيلية تحليلية، محماد رفيع، دار السلام، القاهرة، ط/١، (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م)، ص: ٤٧.

^٧ - مفاتيح الغيب، للفتح الرازي، ٣٠/٢٣٨.



معه لابن آدم وذريته..^١، فإن الأسباب والمسببات موضوعة في هذه الدار لابتلاء الخلق وامتحانهم كيف يعملون، سواء كان ذلك ابتلاء للعقول، أو لنفوس، والآيات الدالة على أن الأسباب إنما هي للابتلاء كثيرة.^٢

وقال تعالى في ابتلاء الانسان بالشر والخير ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (الأنبياء: ٣٥) يقول الماوردي: ﴿فِتْنَةً﴾ فيه وجهان أحدهما: اختبارا. الثاني: ابتلاء.^٣، ويقول في سياق تفسير قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٤٩): "وأصل البلاء الاختبار في الخير والشر.."^٤، "لأن الاختبار قد يكون بالخير كما يكون بالشر، غير أن الأكثر في الشر"^٥، وقال تعالى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ (النمل: ٤٧).

فإن الله تعالى خلق الأزواج، والأضداد للدلالة على الحقائق، فإنه لا يعرف الزوج والضد إلا بزوجه وضده، بالظلمة يعرف النور، وبالشر يعرف الخير، فما بينه الله تعالى وفصله ارتفعت شهيته، وما امتحن فيه الخلق بقيت شهيته قائمة يقول ابن حزم: "فما فصله الله تعالى بأمره ولم يكن إلى المخلوق لعله قامت حقيقته، وارتفعت الشبهة عنه، كانفصال الأرض من السماء، والماء من الثرى، والنار من الرطوبة، والأجسام بعضها من بعض، وما مرجه وامتنح المخلوق بفصله جعل بين حديه البينين، وهما معظم الشيين، شبهة مشبهة بالشك واليقين، فالشبهة واقعة بين الحق والباطل.."^٦.

"فالأزواج والأضداد الجارية في كل موضوع ومخلوق من أمور الدنيا والدين، هي علة الاختلاف الكبرى التي من جبهتها وجب النظر، ووقعت كلفة التدبر والتثبت والاشتباه. وكل خطأ وقع في بني آدم فمن هذه الجهة يقع، ومن هذا الأصل ينبعث"^٧.

ولم يكن الاختلاف في الشرائع والمناهج كذلك عار عن المقصد والغاية، والتي هي الابتلاء والامتحان والاختبار، ليعلم المطيع من العاصي تأمل قوله تعالى: ﴿... لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِثْرًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا أَنْتُمْ فَاَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (المائدة: ٤٨)، بناء على المسؤولية الإنسانية في الاختيار، والجزاء الأخرى ﴿وَكُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا أَفْرَأُ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْنِكَ حَسِيبًا مِّنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٣-١٥).

فإن الأمة التي تختار سبيل الهداية هي أمة مهتدية، والأمة التي تسلك وتختار طريق الضلال هي أمة ضالة، يقول سيد قطب في سياق تفسير قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ (الحج: ١٧) .. "فالأمة التي تفتح قلوبها لدواعي الهدى ودلائله في الكون والنفس هي أمة مهتدية إلى الله بالاهتداء إلى نواميسه المؤدية إلى معرفته وطاعته. والأمة التي تغلق قلوبها دون تلك الدواعي والدلائل أمة ضالة تزداد ضلالا كلما زادت إعراضا عن الهدى ودواعيه.. وهكذا جعل الله لكل أمة منسكا هم ناسكوه، ومنهجها هم سالكوه.."^٨.

يقول أبو زهرة في سياق تفسير قوله تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (هود: ١١٨) إن استمرار الاختلاف وبقائه بين النوع الإنساني: "ابتلاء واختبار، ليبلى الناس، فمن أراد الخير انتزعه من وسط الشر انتزاعا فيكون به الثواب الجزيل، ومن أراد الشر سار فيه، وأعلام الخير واضحة معلمة، تدعوه إلى سلوكه، فإن ضل فعن بينة، والله من ورائه محيط، ويكون الجزاء لمن ضل عن سبيله جزاء وفاقا لما جنى على نفسه، وعلى الحق"^٩.

ويقول كذلك رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِّي بَيْنَهُمْ﴾ (هود: ١١٠): "ولولا أن الله تعالى يمهل الظالمين إلى يوم يبعثون، ويتركهم يتجادلون، ليزيد ابتلاؤهم لقضي بينهم في هذا الاختلاف وبين الحق الذي لا يحتار فيه أحد، ولكنه تركهم يتعرفونه، لأنه خلقهم ذوى مدارك، ومع كل نفس فجورها وتقواها"^{١٠}.

وما يؤكد أن من مقاصد الاختلاف الإنساني: ابتلاء الإنسان واختباره معلمين كبيرين وهما:

^١ - زهرة التفاسير، أبو زهرة، ص: ٢٨٠١.

^٢ - الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي، ١/٤٩٩.

^٣ - النكت والعيون، (تفسير الماوردي)، أبي الحسن علي بن محمد الماوردي البصري(ت:٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، بدون طبعة، بدون تاريخ، ٤٤٧/٣

^٤ - نفسه، ١١٨/١. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، ١/١٤١.

^٥ - النكت والعيون، (تفسير الماوردي)، الماوردي، ١١٨/١-١١٩.

^٦ - رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط١، (١٩٨٣م)، ٤/٣٩٦.

^٧ - نفسه، ٤/٣٩٧.

^٨ - في ظلال القرآن، الشهيد سيد قطب، ٤/٢٤٤٢.

^٩ - زهرة التفاسير، أبي زهرة، ص: ٣٧٧٤-٣٧٧٥.

^{١٠} - نفسه، ص: ٣٧٥٩.

١. الآيات الدالة على التدافع الإنساني لتمحيص الحق من الباطل:

٢. الآيات الدالة على أن الحكم في الاختلاف أمره إلى الله:

رابعاً: اهتداء الإنسان إلى الإيمان الحق:

وعد الله تعالى البشرية بكشف أسرار الكون، وأسرار أنفسهم، حتى يظهر لهم الإيمان الحق، من خلال التفكير والتدبر في الظواهر الكونية المختلفة^١ قال تعالى: ﴿سَأُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣) ..

والأفاق: أقطار السماوات والأرض بمختلف مكوناتها، يقول الشوكاني في ما يرويه عن عطاء: "قال عطاء في الأفاق يعنى أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغير ذلك"^٢.

عوالم مختلفة تفر الاختلاف وتعترف به ظاهرة طبيعية، وتهدي الإنسان إلى مقصد من مقاصد هذا الاختلاف، وهو حصول الإيمان الحق، وكمالها بالنظر والتدبر في هذه العوالم المختلفة، لأن الله تعالى نصبها أدلة وعلامات على أنه هو الله الواحد المدبر لهذا الكون، لأن اختلاف المحقق للكمال والجمال، لا يمكن أن يكون قد وجد صدفة بدون موجد لا مبدع.

فمقصد الإيمان الحق لا يظهر إلا من خلال النظر في الآيات الكونية المختلفة، والتي يثما الحق سبحانه في الأفاق، من الآيات الفلكية والكوكبية، من شمس وقمر ونجوم، وآيات الليل والنهار ... وما أودعه فيها سبحانه من تباين واختلاف، للدلالة على الحق الذي أقام عليه الدلائل ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣) يقول الفخر الرازي: "والمعنى ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التي أوضحتها الله تعالى وقررها في هذه السورة وفي كل سور القرآن الدالة على التوحيد والتنزيه والعدل والنبوة"^٣.

فالآيات والظواهر الكونية المختلفة، دليل وحدانية الله وربوبيته سبحانه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ (فصلت: ٣٧)، فجعل القرآن الكريم من مقاصد الاختلاف في الظواهر الكونية، وما بينها من التباين في الأشكال والوظائف، دليلاً وعلامة على أعظم حقيقة في الوجود، وهي وحدانيته سبحانه وقدرته^٤.

ويذكر القرآن الكريم تجليات هذه القدرة الإلهية في خلق الله للكون بعوالمه المختلفة، في سياق إقامة الدليل الحسي المشاهد على المعترضين ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (لقمان: ١٠-١١) فهذا استئناف للاستدلال على من يرى هذه الظواهر الكونية واختلافها ثم يعترض على أن الله تعالى هو الخالق لها، "ولذا فإن موقع هذه الآيات موقع دليل الدليل، وهو المقام المعبر عنه في علم الاستدلال بالتدقيق، وهو ذكر الشيء بدليله ودليله دليله .."^٥.

ومن مقاصد هذا الاختلاف أنه أحد الدلائل على الإيمان بصحة البعث يقول البطليوسي أن الله تعالى: "نهنا ألطف تنبيهه على ما في هذا الخلاف الموجود في البشر المركوز في الفطر من الحكمة البالغة وأنه جعله إحدى الدلائل على صحة البعث الذي أنكره من ألحد في أسمائه وكفر بسوابع نعمائه"^٦.

خامساً: اهتداء الإنسان إلى حقيقة الاختلاف:

فإن الله سبحانه وتعالى وإن تفرّد بالأحادية، التي ينتفي معها كل تعدد أو اختلاف، أو تنوع، فإن مشيئته اقتضت أن تكون الظواهر الكونية قائمة على التنوع والتباين والاختلاف، المؤسس على النفع البشري الذي تتكامل فيه عوالم الكون وظواهره، فيكون تأسيس القرآن الكريم لاختلاف على أصل اختلاف الظواهر الكونية، تأسيساً لاختلاف مثمر ونافع للبشرية.

^١ - تحيل القارئ على الأصل الأول لشرعية الاختلاف: "اختلاف الظواهر الكونية" في المحور الأول من هذه الدراسة.

^٢ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني(ت: ١٢٥٠)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط/١، (١٤١٤هـ)، ٥٩٩/٤. تفسير الجلالين جلال الدين محمد بن أحمد المحلي(ت: ٨٦٤هـ)، وجمال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي(ت: ٩١١هـ) دار الحديث، القاهرة، ط/١، ص: ٦٣٧.

^٣ - مفاتيح الغيب، للفخر الرازي، ١٤١/٢٧.

^٤ - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣٦٣/١٥.

^٥ - التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٤٥/٢١-١٤٦.

^٦ - الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم، ابن السيد البطليوسي، ص: ٢٦.

وهذا الاختلاف في الشكل والوظيفة للظواهر الكونية، اختلاف ثراء ونماء، وليس عبثاً أو اختلاف من أجل الاختلاف فقط، وفي هذا معنى قرآني توجيهي للاختلاف البشري، نحو فهم حقيقة الاختلاف، وتوجهه بالضرورة نحو القضايا المثمرة للعلم والعمل. فإن اختلاف الثمار وتغايرها في الشكل والطعم، اختلاف تكامل وتوازن، وليس اختلاف تضاد وتنافر، فكذلك ينبغي أن يكون الاختلاف الإنساني، فالثمار رغم اختلافها تسقى بماء واحد، كاختلاف بني الإنسان في طباعهم، وعقولهم، ومنازعتهم.. وأصلهم واحد، يقول العز بن عبد السلام في قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الرعد:٤) هذا مثال ضربه الله تعالى: "لبي آدم أصلهم واحد واختلفوا في الخير والشر والإيمان والكفر كالثمار المسقية بماء واحد".^١

فاختلاف الظواهر الكونية، مثلاً ضربه الله تعالى لبني الإنسان للاهتمام إلى حقيقة اختلاف التنوع، اختلاف التكامل والتوازن، فالحق سبحانه خلق الاختلاف وخلق جوامع لهذا الاختلاف، فرغم اختلافهم في الخير والشر، والإيمان والكفر، فأصلهم واحد يروي القرطبي عن الحسن في الآية السابقة: "المراد بهذه الآية المثل، ضربه الله تعالى لبني آدم، أصلهم واحد، وهم مختلفون في الخير والشر، والإيمان والكفر، كاختلاف الثمار التي تسقى بماء واحد"^٢، فإذا تذكر الإنسان هذه الحقيقة اهتدى إلى سنة الله تعالى في اختلاف الخلق.^٣ قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الروم:٢٢) فهذه الآية تؤسس لشرعية الاختلاف المتصل بالوجود الإنساني في الطبيعة.

واختلاف ألسنة البشر ولغاتهم آية عظيمة، فهم مع اتحادهم في النوع، واتحادهم في الأصل، كان اختلاف لغاتهم آية دالة على ما جعله الله في غريزة البشر، من اختلاف في التفكير المفضي إلى الاختلاف الثقافي والحضاري والديني... وأما اختلاف ألوان البشر فهو آية من آيات الله في خلقه، لأن البشر منحدر من أصل واحد وهو آدم، وإن تعددت واختلفت ألوان بشرتهم، وهذا الاختلاف في الألوان من علة: اختلاف المواطن بالحرارة والبرودة، ومنها التوالد من أبوين مختلفين... ومنها اختلاف الأغذية من منطقة إلى أخرى... وعليه فإن اختلاف اللغات والألوان، لا يدل على اختلاف النوع الواحد، والأصل الواحد... وهذه إشارة قرآنية لمعرفة حقيقة الاختلاف.

الخاتمة:

يقترح القرآن الكريم هذا الجواب الحضاري على المجتمع الإنساني، بكل عقائده وأفكاره وطوائفه وأجناسه وقومياته... من أجل الإيمان بشرعية الاختلاف، والإقرار به حقيقة تكوينية، بمقتضى الجعل الإلهي، والمشيئة الإلهية، وحقيقة تشريعية توجه المجتمع البشري إلى مقاصد الاختلاف، لنفي التعصب والعنف، ليتحول الاختلاف إلى أمر محمود وطبيعي، تتكامل وتتعاون فيه الأفكار المختلفة، لإنتاج المعرفة الحقيقية، والعمل النافع للبشرية، والعيش المشترك في وفاق وسلام، وهذا شرط ضروري، لا تستقيم علاقتنا الإنسانية وما ينتج عنها من اختلافات بدون تحققه.

وهذا الأصول التكوينية، والمقاصد التشريعية: أصول تكوينية خلق الله تعالى عليها الوجود والإنسان، ومقاصد تشريعية تسدّد الفهم، وتهدى السلوك، وهذا المنهاج، وهذه الرؤية، يكون الخطاب القرآني قد أصل لمشروعية الاختلاف، وأعطى الجواب الحضاري، لحل مشكلة الاختلاف والتزاع والصراع.. في المجتمع الإنساني.

المراجع:

- القرآن الكريم.
- ١. إحياء علوم الدين، ومعه المغني عن حمل الأسفار في الأسفار، الغزالي(ت:٥٠٥هـ)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط/١، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).
- ٢. أخبار العلماء بأخبار الحكماء، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي(ت:٦٤٦هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/١، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).
- ٣. أدب الدنيا والدين، الماوردي(ت:٤٥٠هـ)، شرح وتعليق: محمد كريم راجح، ط/٤، (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).
- ٤. إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات، محمد بن علي الشوكاني(١٢٥٠هـ)، صححه وضبطه: مجموعة من العلماء، بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/١، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

^١ - تفسير القرآن (اختصار النكت والعيون للماوردي)، العز ابن عبد بن عبد السلام(ت:٦٦٠هـ)، تحقيق الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم، بيروت، (١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ١٤٤/٢.

^٢ - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٨٣/٩.

^٣ - السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/١، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م)، ص:١٣٥.



٥. أزمة العقل المسلم، عبد الحميد أحمد أبو سليمان، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة إسلامية المعرفة (٩)، هيرندن، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط/١، (١٤١٢هـ/١٩٩١م).
٦. أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ابن عاشور، الشركة التونسية، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط/٢، (١٩٨٥م).
٧. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي (ت:١٣٩٣هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م).
٨. الإبانة عن أصول الديانة، أبي الحسن الأشعري (ت:٣٣٠هـ)، دار ابن زيدون، بيروت، لبنان، ط/١، بدون طبعة، بدون تاريخ.
٩. الاجتهاد بين أسر الماضي وآفاق المستقبل، محمد حسين فضل الله، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط/١، (٢٠٠٩م).
١٠. الاعتصام، الشاطبي، ضبطه وصححه: أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).
١١. الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم، ابن السيد البطليوسي (ت:٥٢١هـ)، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، سورية، ط/٣، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).
١٢. الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، القاضي الباقلاني (ت:٤٠٣هـ)، تحقيق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، ط/٢، (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).
١٣. البحر المحيط في أصول الفقه، الزركشي الشافعي (ت:٧٩٤هـ)، حرره: عبد القادر عبد الله العاني، راجعه: عمر سليمان الأشقر، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ط/٢، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م).
١٤. البرهان في أصول الفقه، الجويني (ت:٤٧٨هـ)، تحقيق: عبد العظيم الديب، دولة قطر، ط/١، (١٣٩٩هـ).
١٥. التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دار التونسية، بدون طبعة، (١٩٨٤م).
١٦. التعدد التنظيبي للحركة الإسلامية ما له وما عليه، أحمد الريسوني، دار الكلمة، مصر، القاهرة، ط/١، (١٤٣٤هـ/٢٠١٣م).
١٧. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (ت:٦٧١هـ)، تحقيق: هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).
١٨. الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، طه عبد الرحمان، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط/١، (٢٠٠٥م).
١٩. الرسالة، الشافعي (ت:٢٠٤هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة الحلبي، مصر، ط/١، بدون طبعة، بدون تاريخ، (١٣٥٨هـ/١٩٤٠م).
٢٠. السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط/١، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
٢١. العدالة الاجتماعية في الإسلام، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط/١٣، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).
٢٢. العقل وفهم القرآن، الحارث المحاسبي (ت:٢٤٣هـ)، تحقيق: حسين القوتلي، دار الفكر، ط/١، (١٣٩١هـ/١٩٧١م).
٢٣. الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الظاهري (ت:٤٥٦هـ)، تحقيق: الدكتور محمد إبراهيم نصر، عبد الرحمان عميرة، دار الجيل، بيروت.
٢٤. الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه: خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط/٣، (١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).
٢٥. المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، محمد أبو زهرة، الدار السعودية، جدة، ط/٢، (١٤٠١هـ/١٩٨١م).
٢٦. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية (ت:٥٤٦هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
٢٧. المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبد الرحمن السيوطي، شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته وعلق حواشيه: محمد أحمد جاد المولى بك، محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد الجاوي، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط/٣.
٢٨. المستصفي من علم الأصول، الغزالي (ت:٥٠٥هـ)، دراسة وتحقيق: محمد سليمان الأشقر، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط/١، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).
٢٩. المسودة في أصول الفقه، آل تيمية، الجد: مجد الدين عبد السلام بن تيمية (ت:٦٥٢هـ)، الأب: عبد الحلیم بن تيمية (ت:٦٨٢هـ)، الابن الحفيد: أحمد بن تيمية (ت:٧٢٨هـ)، تحقيق: أحمد بن إبراهيم عباس الذروي، دار الفضيلة، الرياض، ط/١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).
٣٠. المعتمد في أصول الدين، القاضي أبي يعلى الحنبلي، تحقيق: وديع زيدان حداد، دار المشرق، بيروت، ط/١، (١٩٨٦هـ).
٣١. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني (ت:٥٠٢هـ)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ط/١، (١٤١٢هـ).



٣٢. المنخول من تعليقات الأصول،، الغزالي(ت:٥٠٥هـ)، تحقيق: الدكتور محمد حسن هيتو، دار الفكر، دمشق، ط/٢، (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).
٣٣. الموافقات في أصول الشريعة، الشاطبي(ت:٧٩٠هـ)، شرحه وخرج أحاديثه ووضع تراجمه: عبد الله دراز، خرج آياته وفهرس موضوعاته: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/١، (١٤١١هـ/١٩٩١م).
٣٤. النظر الشرعي في بناء الائتلاف وتدبير الاختلاف: دراسة تأصيلية تحليلية، محماد رفيع، دار السلام، القاهرة، ط/١، (١٤٣٣هـ/٢٠١٢م).
٣٥. النكت والعيون، (تفسير الماوردي)، أبي الحسن علي بن محمد الماوردي البصري(ت:٤٥٠هـ)، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، بدون طبعة، بدون تاريخ.
٣٦. الوحي المحمدي، ثبوت النبوة بالقرآن ودعوة شعوب المدينة إلى الإسلام دين الأخوة الإنسانية والسلام، محمد رشيد رضا، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ط/٣، (١٤٠٦هـ).
٣٧. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، القاضي البيضاوي(ت:٧٩١هـ)، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه: محمد صبيحي بن حسن حلاق ومحمود أحمد الأطرش، دار الرشيد، دمشق، بيروت، مؤسسة الإيمان، لبنان، ط/١، (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).
٣٨. تفسير الجلالين جلال الدين محمد بن أحمد المحلي(ت:٨٦٤هـ)، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي(ت:٩١١هـ) دار الحديث، القاهرة، ط/١.
٣٩. تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا(ت:١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٩٩٠م).
٤٠. تفسير القرآن للإمام عبد الرزاق بن الهمام الصنعاني(ت:٢١١هـ)، تحقيق: مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط/١، (١٤١٠هـ/١٩٨٩م).
٤١. تفسير القرآن(اختصار النكت والعيون للماوردي)، العز ابن عبد بن عبد السلام(ت:٦٦٠هـ)، تحقيق الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم، بيروت، (١٤١٦هـ/١٩٩٦م).
٤٢. تفسير مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان البلخي(ت:١٥٠هـ)، تحقيق: أحمد فريد، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط/١، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).
٤٣. تهافت الفلاسفة، ابن رشد، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف، مصر، ط/١، (١٩٦٤م).
٤٤. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي(ت:١٣٧٦هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط/١، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).
٤٥. جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري(ت:٣١٠هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط/١، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).
٤٦. حجة الله البالغة، شاه ولي الله الدهلوي، حققه وراجعته: السيد سابق، دار الجيل، ط/١، (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).
٤٧. رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط/١، (١٩٨٣م).
٤٨. زهرة التفاسير، أبو زهرة(ت:١٣٩٤هـ)، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون طبعة، بدون تاريخ.
٤٩. عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، السمين الحلبي(ت:٧٥٦هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/١، (١٤١٧هـ/١٩٩٦م).
٥٠. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الشوكاني(ت:١٢٥٠)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط/١، (١٤١٤هـ).
٥١. في ظلال القرآن، سيد قطب(ت:١٣٨٧هـ)، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط/٣٢، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).
٥٢. كتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة، الأصفهاني(٥٠٢هـ)، تحقيق: أبو الزيد أبو زيد العجفي، دار السلام، القاهرة، ط/١، (١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).
٥٣. كتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، الإمام أبي الحسن الأشعري(ت:٣٣٠هـ)، صححه وقدم له وعلق عليه: حمودة غرابة، مطبعة مصر، (١٩٥٥م).
٥٤. كتاب المواقف، عضد الدين أحمد الإيجي، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط/١، (١٩٩٧م).
٥٥. كليات رسائل النور، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، مصر، ط/٤، (٢٠٠٤م).
٥٦. مجموع الفتاوى، ابن تيمية الحراني(ت:٧٢٨هـ)، تحقيق: عبد الرحمان بن محمد بن القاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، (١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

٥٧. مختار الصحاح، الرازي(ت:٦٦٦هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا، ط/٥، (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).
٥٨. معجم ألفاظ القرآن الكريم، وضع: مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، جمهورية مصر العربية، القاهرة، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).
٥٩. مفاتيح الغيب(التفسير الكبير)، الرازي(ت:٦٠٤هـ)، دار الفكر، ط/١، (١٤٠١هـ/١٩٨١م).
٦٠. نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، جمال الدين ابن الجوزي(ت:٥٩٧هـ)، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، سوريا، ط/٣، (١٤٠٧/١٩٨٧م).
٦١. نظرات في الإسلام، عبد الله دراز، (١٣٩٢م/١٩٧٢م).
٦٢. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية(ت:٥٤٦هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط/١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).



The legitimacy of Human Difference: Formative Assets and Legislative Purposes

Mohammed Al - Sadqi Al – Ammari

Specialization of theology and Islamic Thought, Director of the Center for the Management of Differences of Studies and Research, Fez – Morocco
sadikiamarimohamed@gmail.com

Abstract:

The difference between the issues that are misunderstood and assimilated, but if we learn the discourse of Shari'a, and make the effort, but will be emptied the situation, to trace the resources of this issue in the texts of revelation, and the jurisprudence of fundamentalist industry, at the level of theorization and sanctification, and on the level of activation and practice, The right to difference and legitimacy, and the legitimacy of difference - and legitimate consideration - based on the assets of composition, and legislative purposes.

God's will to form people is one nation .. (Hood: 118), and this difference has no income in them Ibn Ashour says: "The difference is permanent among them, because it is necessary for what the minds have set on him." And God has decreed them in eternity. Based on the above, human differences have composition, Legislative, on which the legitimacy of difference is based, and the right to it, God Almighty wanted to difference Kuna, h Or the colors, the tongues, and the tribes ... All this is a universal divine will, but the human face has to touch the purposes of this legislative difference, including: acquaintance and cooperation. The context of the creation alert that the difference of peoples and tribes destination acquaintance, and the context of the difference of cosmic phenomena, the purpose of integration, beauty, and human orientation to faith in the unity of God and his presence.

Keywords: human difference, formative origins, legitimate purpose.